القبائل والقراءات

للأستاذ عبد الستار أحمد فراج

— ٧ —

من المستحسن بعد أن قدمت في المقال السابق نبذة عن أربع قبائل أن أستقصي خصائص كل قبيلة على حدة مشيراً إلى ما تشارك فيه غيرها أو أحقق ما ينسب إليها وهو بغيرها أحق .

١ — إذا أضيف الاسم المقصور إلى ياء المتكلم ظل على حاله من بقاء الألف كما هي فيقال فتاي وعصاي ، أما إذا كان قبل ياء المتكلم ألف من حروف الجر « إلى وعلى » أو من الظرف « لدى » فإن الألف تدغم في ياء المتكلم فيقال إليَّ وعليَّ ولديَّ . هذا هو الشائع المستعمل في القبائل العربية ما عدا هذيلاً فإنها تستعمل الجميع استعمالاً واحداً وهو بالإدغام فيقولون فتيَّ وعصيَّ مثل : إليَّ وعليَّ . قال شاعرهم :

سبقوا هويَّ وأعنقوا لهواهمو فتخرموا ولكل جنب مصرع

وقد قرأ عبد الله بن أبي إسحق وعاصم الجحدري « قال هي عصيَّ أتوكأ عليها » كما قرأهما وعيسى بن عمر « فمن تبع هديَّ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وما شابه ذلك من المقصور المضاف إلى ياء المتكلم قرئ به على لغة هذيل ، أما قراءة الجمهور فهي على اللغة المشهورة .

٢ — « لمَّا » يدل في المشهور على الحين أو الشرط إذا كان قبل الفعل الماضي كقوله تعالى : « ولمَّا فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم رُدَّت إليهم » أو يدل على النفي مع الجزم للمضارع إذا سبقه كقوله تعالى : « كلا لما يقض ما أمره » أما لغة هذيل فيستعمل فيها بمعنى إلا الاستثنائية تقول أقسمت عليك لمَّا فعلت كذا أي إلا فعلت كذا . وقد قرأ عاصم وابن عامر وحمزة وأبو جعفر « إن كل نفس لمَّا عليها حافظ » بتشديد الميم بمعنى إلا « وإن » في هذه الآية على قراءتهم نافية أي ما كل نفس إلا عليها حافظ . كما جاءت لمَّا بمعنى إلا في قراءات صحيحة في سور أخرى .

٣ — ما كان اسما على وزن فَعْلَة مفتوح الفاء وبعده واو ساكنة أو ياء ساكنة فإنه في اللغة المشهورة يجمع جمع مؤنث سالماً على فَعْلات بإسكان العين بعد الفاء المفتوحة يقال في جمع بيضة وعورة « بيضات وعورات » لكن هذيلاً تحرك حرف العلة بالفتح تبعاً لفاء الكلمة يقولون بيضات وعوَرات بفتح الياء والواو . وذكر في تفسير البحر أن الأعمش قرأ « ثلاث عوَرات لكم » أو الطفل الذين لم يظهروا على عوَرات النساء » بفتح الواو على لغة هذيل . أما الجمهور فقرءوا بالإسكان لكن صاحب البحر نقل نسبة هذا الفتح إلى هذيل وبني تميم .. ونحن نعلم أن تميماً مبدؤها القالب إسكان الوسط المتحرك تخفيفاً كما أنه ليس هناك علاقة مجاورة بين القبيلتين حتى تشتركا في ظاهرة قوية كهذه ، ويرجع هذا الخلط إلى أن ابن خالويه في كتاب شواذ القراءات قال : إن بني تميم يقولون روَضات وجوَزات وعوَرات بتحريك الواو بالفتح وسائر العرب بالإسكان . لكن المشهور في كتب النحو والصرف أن تحريك الواو والياء في مثل جوزات وبيضات هو لغة هذيل بن مدركة وهو ما أرجح صحته لما سبق أن قدمته ، والفراء نسبه إلى هذيل فحسب وقد روى عليه :

أو بيَضات رائح متأوب رفيق بمسح المنكبين سبوح

٤ — الفعل أو الاسم المنتهي آخره بياء مكسور ما قبلها تشبع حركته وهي الكسرة في وصل الكلام ووقفه تقول يقضي والقاضي ... الخ أما هذيل فإنها في وصل الكلام تجتزىء بالكسرة عن الياء ولهذا عند الوقف يسكن ما قبل الياء فتضيع وقد أنشد على لغتهم :

كفاك كف ما تُليق درهمـــا جوداً وأخرى « تمط » بالسيف الدما

وجاء في قراءة سبعية كثيرة ... ذلك ما كنا نبغ ... « يوم تأتِ ... والليل إذا يسر ... وهو الكبير المتعال ... الذين جابوا الصخر بالواد » فبعض القراء يسير على طريقة الهذليين في الوصل والوقف فيسكن ما قبل الياء ويجتزىء بالكسرة وصلا وبعضهم يسير على اللغة المشهورة فيقرءون المتعال ويسري والوادي .. الخ في الوقف والوصل .

٥ — ذكرت في مقال سابق أن تميما وقيساً وأسداً وربيعة

يكسرون حرف المضارعة إذا كان الهمزة أو التاء أو النون أما قبيلة هذيل فإنها تكسر حرف المضارعة إذا كان ثانى فعله الماضى مكسوراً للاشارة إلى أنه فى ماضيه مكسور وأن بعض قبيلة كلب من قضاعة يكسرون جميع أحرف المضارعة أما بهراء وهى من قضاعة فإنها تكسر ما كان أوله التاء فحسب ومع ذلك فإن بهراء هى التى سمى باسمها هذا الكسر فقيل «تلتلة بهراء» فأصبح كثير من الكتاب يخطئون فيحسبون كسر حرف المضارعة على إطلاقه من لهجة بهراء تأثراً بما اشتهر من ذلك بأنه تلتلتها وبعضهم يخطئ فينسب بهراء إلى تميم وقد رأينا أن بهراء لا تكسر حرف المضارعة إلا إذا كان تاء وعلى العموم فإن القبائل الشمالية وبخاصة النجدية هى التى اشتهرت بكسر حرف المضارعة على التفصيل السابق ولم يشركهم فى بعض هذا إلا هذيل التى تعتبر فى دائرة الحجازيين فيما كان ثانى ماضيه مكسوراً .

وقد رويت أبيات كثيرة فى كتب النحو والمعاجم وفيها كسر حرف المضارعة من ذلك قول الشاعر :

لو قلت ما فى قومها — لم يَيْثم — يفضلها فى حسب وميسم

أراد لو قلت : ليس فى قومها أحد يفضلها فى الحسب والميسم لم تكن آثما .

وهذا البيت ينطبق فى بهراء وتميم وقيس وأسد وربيعة وكلب وهذيل بكسر حرف مضارعه لأن ثانى ما ضيه مكسور « أثم » ولأن أول مضارعه التاء ومثل هذا البيت قول الآخر :

قلت لبواب لديه دارها تِيذن ؟ فإنى حمؤها وجارها

أراد : أتأذن ؟ فحذف همزة الاستفهام وقد تقدم بعض ما قرئ به فى مقال سابق .

٦ — نسب صاحب البحر إلى هذيل أنها تبدل الواو المكسورة المصدرة همزة وذلك عند تفسير قوله تعالى « فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه» حيث قال « قرأ ابن جبير من إعاء أخيه بإبدال الواو المكسورة همزة كما قالوا إشاح وإسادة فى وشاح ووسادة وذلك مطرد فى لغة هذيل يبدلون الواو المكسورة الواقعة أولا همزة » وقال الصبان فى حاشيته على الأشمونى : وقرأ أبى ابن كعب وابن جبير الثقفى من إعاء أخيه ...

ونقل عن الرادى : قوله « رأيت فى بعض الكتب أنه لغة هذيل » اه ولعل بعض الكتب هو تفسير أبى حيان . أما لسان العرب فقد نسب ذلك إلى قبيلة تميم حيث يقول : إقاط ووقاط جمع وقيط . ولغة تميم فى جمعه إقاط مثل إشاح يصيرون كل واو تجىء على هذا المثال ألفاً « ولعله أراد بهذا المثال » ما كان على وزن فِعال أو فِعالة حيث ورد وشاح وإشاح ووقاط وإقاط وركاب وإكاف ووعاء وإعاء ووسادة وإسادة ووراثة وإراثه ووفادة وإفادة ووقاء وإقاء » وقد يكون أراد بهذا المثال ما كان واواً مكسورة فى أول الكلمة وهو الأظهر فقد ورد « ورب وإرب وورث وإرث ووصر وإصر » حيث يوافق الصبان على الأشمونى فى إطلاقه على ما كان واواً مكسورة مصدرة .

وقد نقل شارح القاموس أيضاً ما ذكره صاحب اللسان . ويختلف اللغويون فى جواز هذا الإبدال وإطراده والقياس عليه أو أنه قاصر على السماع ! فأبو عثمان المازنى يرى أنه مقيس مطرد وغيره يقصره على السماع .

ونحن حين نناقش هذا الإبدال ونريد الترجيح بين نسبته إلى القبيلتين وفى هذه الكتب نجد أنه بتميم ألصق وإليها أقرب وأن ما ذكره أبو حيان وما عزى إلى الرادى فى حاشية الصبان سهو منهما أو خطأ فقد بينت فى المثال الثانى أن هذيلا كالحجازيين لا يبدلون . فإذا كانوا فى المهموز يخففون همزته تكيف يهمزون ما ليس كذلك ! وبينت أيضاً أن قبيلة تميم أحرص العرب على النبر كما أنها قد تلجأ فى إبانة الحرف إلى ما هو أقوى منه وأوضح حتى تنقل بالهمزة إلى العنعنة وبعضها ينتقل بالياء إلى الجيم فى المجمجة . أما القياس وعدمه فيحتاج إلى قرار يصدره المجمع اللغوى فى جواز ذلك أو قصره على السماع .

وهناك إبدال فى الواو المضمومة المصدرة ولكن لم ينسب إلى قبيلة بعينها أو جهة بخصوصها وقد نقل صاحب لسان العرب عن المازنى قوله : كل واو مضمومة فى أول الكلمة فأنت بالخيار إن شئت تركتها على حالها وإن شئت قلبتها همزة فقلت وُعِد وأُعِد ووُجوه وأجوه ووُورى وأُورى ... » وورد « وُقتت وأُقتت » وذكر أبو حيان فى تفسيره « قرأ الجمهور أقتت بالهمز وشد القاف وقرأ أبو الأشهب وعمرو بن عبيد وعيسى بن عمر وأبو عمرو بالواو

وعند القاف قال عيسى وهى لغة سفلى مضر » اه . وسفلى مضر هى القبائل التى تقارب النجديين أو هى النجديون أما عليا مضر فهى التى تقارب المدينة وما حولها ودنا منها فإما أن « وقفت » بخصوصها هى التى ينطقها سفلى مضر وإما أن يراد بسفلى مضر القبائل القريبة جداً من أهل الحجاز الذين لا ينبرون وهم بعض قيس المجاورون للحجازيين حيث إن الهمز من خصائص النجديين وقلب الواو همزة وهى مضمومة بهم ألصق وبلهجتهم أنسب ، وبخاصة التميميون وقد قيل تميم بن أد وأصله ود . كما ورد فى الواو المصدرة المفتوحة هذا الإبدال بقلة : ورخ وأرخ وورخ وأرخ .

ومما يؤيد كون قلب الواو المكسورة من خصائص تميم أن المزهر نسب الإكاف بالهمزة إلى تميم والوكاف بالواو إلى الحجازيين وهذيل تجاورهم أشد المجاورة .

٧ — « متى » اسم يدل على الاستفهام أو الشرط يفيد معنى الزمن فى كليهما فمن الاستفهام قوله تعالى متى نصر الله ومن الشرط قول الشاعر :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

أما لغة هذيل فى « متى » فهى استعمالها حرفاً بمعنى « من » الجارة فتعمل عملها وبمعناها سمع من قولهم « أخرجها متى كه » أى من كه وروى :

شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نئيج

أراد من لجج فخرجت فى لغتهم عن الاسمية والاستفهام والشرطية . والقرآن الكريم لم تقع « متى » فيه إلا استفهامية

٨ — « الأم » تنطقها القبائل بضم الهمزة ما عدا هذيلاً وهوازن فإنهما يكسران همزتها إذا سبقتها الياء أو الكسرة وقد قرأ بكسر الهمزة « فلأمه الثلث » حمزة والكسائى وقرأ الباقون بضمها .

٩ — تقول هذيل أرجمته وغيرها يقول رجمته ، وجمهور القراء قرءوا ما ورد فى القرآن من الثلاثى : فإن رجعك الله . فرجعناك إلى أمك . ترجعونها . يرجع بعضهم إلى بعض القول وحكى أبو زيد الأنصارى أن الفضل الضبى قرأ : أفلا يرون أن لا يُرجع إليهم قولا . وقال رب أرجعون» من الرباعى على لغة هذيل

١٠ — هذيل وعقيل وطيئ يبدلون اسم الموصول الدال على الجمع فى حالة الرفع على الواو وفى حالة النصب والجر على الياء وقد جاء على لغتهم :

نحن الذين صبحوا الصباحا يوم النخيل غارة ملحاحا

١١ — اشتهر عن هذيل ما يسمى الفحفحة ويعرفونها بأنها قلب الحاء عيناً يقولون فى حتى عتى ، وذكر السيوطى فى كتاب الاقتراح فى أصول النحو أن فحفحة هذيل هى أن يجعلوا الهاء عيناً فيقولون فى هل عل . ولست أدرى من أين جاء بهذا الذى لم يقل به أحد ، بل إن الحاء وإبدالها عيناً لم يذكروا لها إلا عتى فى حتى مما يدل على أن قلبها إنما هو فى هذه الكلمة بخصوصها ويؤيد ذلك ما يروى أن عبد الله بن مسعود قرأ : عتى حين ، فلو كان الإبدال مطرداً لقرأ : عتى عين . والذى يبدو لى أن الهذليين يجهرون بالهاء إلى أن تقارب العين وظهر ذلك فى «حتى» بوضوح فجعلها إلى العين أقرب ثم طال بها العهد فصارت فى استعمالهم بخصوصها عتى .

١٢ — كذلك اشتهر عن هذيل والأزد وقيس وسعد بن بكر من قيس والأنصار ما يسمونه الاستنطاء وهو أن يجعلوا العين الساكنة قبل طاء توناً يقولون أنطى فى أعطى .. والحقيقة أن ما ورد من هذا الاستنطاء هو فى أعطى وتصريفها فحسب ، وهى التى إستعملها الرسول فى بعض كتبه حيث قال وأنطوا الثبجة وقرئ عليها إنا أنطيناك الكوثر ، وروى الحديث لا منطى لما منعت ولا مانع لما أنطيت . ولم يرد إلينا أنهم قالوا فى أعطف وأعطب وأعطر وما شابه ذلك : أنطف وأنطب وأنطر . ويخيل إلى أيضاً أن العين فى أعطى دخلها ما يشبه الغنة والإدغام فحولها الأنف إلى ما يشبه النون ومضى الزمن ورثت على أنها نون وصارت لفظة أنطى مرادفة لأعطى كما أصبحت عتى مرادفة لحتى وليس كل عين ساكنة قبل طاء ينطقونها تونا ولا كل طاء يبدلونها عيناً ، أما الفحفحة التى ذكرها السيوطى فى الاقتراح فلم أجد من ذكرها غيره وقد تكون الهاء فيها نالت من القوة عند البدء بها ما جعلها تشبه العين . ولم يرد غير : ألا لغة فى علا وألا لغة فى هل ولم يقل أحد علا ولا هل .

١٣ — ذكر ابن الجزرى فى غاية النهاية أن هذيلا تكسر أول الماضى المبنى للمجهول إذا كان مضعفاً فيقولون فى رُدّ بالضم